

أسباب ستر المرأة وسفورها في شعر العصر الجاهلي

سيدحيدر الشيرازي*

الملخص

إنّ لستر المرأة العربية وحجابها وعفافها أهمية بالغة اُكثرت بها الثقافة الجاهلية وتناولها الشعراء صفاً ومدحاً وفخراً لأنفسهم. وكان لهذا التسترّ والعفاف دلالات فطرية ولفظية ذكرناها في هذه الوجيزة. ولكن المرأة في العصر الجاهلي كما كانت متسترة، كانت سافرة لسفورها دواع مختلفة نشأ معظمها متأثراً بالأفكار والتقاليد الجاهلية فدراسة أسباب السفور موضوع آخر نوقش في هذا المقال من خلال الأدب الشعري في هذا العصر وكان من أهم تلك الأسباب: الحزن والمصيبة والخوف من السبي في الحروب وإبراز الحسن والمحبة وداعية الفقر والمسكنة.

الكلمات الدليلية: المرأة، الستر، العفاف، السفور.

*. أستاذ مساعد بجامعة الخليج الفارسي بوشهر (استاديار دانشگاه خليج فارس بوشهر).

المقدمة

إنَّ بإلقاء نظرة عابرة وسريعة على ما دوّنت في الكتب الأدبية نجد الدراسات الشعرية في ستر المرأة متكاثرّة كما في سفورها وذلك بفارق وهو أنّها متناثرة في معظمها وغير منتظمة ومبوّبة، اللهم إلا فيما وجدنا لبعض الدارسين كالحوفي في كتابه «المرأة في الشعر الجاهلي» حيث أفرد فيه فصلاً للمرأة السافرة والمحتجبة أو ما رأينا في مؤلّفات أخرى نوقش فيها زيّ المرأة ولباسها وحليّها. وما إلى ذلك في البحوث المنطرحة في فن الرثاء. والذي دعانا إلى الخوض في مثل هذا البحث هو عدم وجدان ضالّتنا المنشودة في تلك المباحث. فارتأينا أن نقوم بدراسة متعمّقة أكثر فاهتدينا إلى هذه الأسباب المتواجدة لدينا الآن.

مما يلفت النظر أنّه لم تكن النساء العربيّات كلّهن سوافر كما لم تكن كلّهن محجّبات والأهمّ من ذلك إنّ السفر كان من عوامله الأجواء الثقافيّة الخاصة أو الظروف الإقتصاديّة الصعبة أو الفتن والحروب المفروضة المذلّة للمرأة، هذه هي التي قمنا بدراستها في الأدب الشعري وتركنا دراستها النفسيّة لأهلها.

إنّ المتنبّع لأخبار ما يتعلّق بسفور المرأة أو سترها قد يجد أن الأخبار الواردة في تسترّ المرأة العربية موفورة كوفرة أخبار سفورها، لكنّ السفر خلافاً للفطرة السليمة العفيفة التي أودع بها وجبل عليها الإنسان، كان لها من دواعٍ مختلفة نشأ معظمها متأثراً بالآداب والتقاليد البالية الجاهلية. ولما بعث النبي (ص) جاء بثقافة إسلامية متوقّية ومتحدّرة بكثير من تلكم الفتن التي كانت تنار من قبل المرأة بسفورها وتبرّجها.

المرأة الجاهلية وأسباب سفورها

١. الجزع عند الحزن والمصيبة

كانت المرأة الجاهلية تختلف عند المناحة عن غيرها فكانت حتى المحجّبات منها تسفر لأنّ المصيبة المفجعة والنياحة المؤلمة تنحرف بالمرأة عن استمرارها بالحفاظ على التستر والاختباء فهي كأنها ينفذ اصطبارها فتفقد توازنها وطمئننتها لعواطفها الجياشة



وأحاسيسها الغلابة فعندئذٍ رغماً على غيرة العرب كان يسمح لها شيء من السفور رعاية لأنوثتها وتفتت أعصابها وحالتها المشجبة، كما كان يجوز لها الخمش واللطم جزعاً منها على فقيدتها وهذا ما كان يعتبر لديهم نوع من الحداد. يدل على ذلك كثير مما أنشده الشعراء في وصف سفورها لدى المصائب، وذلك عندهم من علامات الحزن الشديد حيث تذهل المرأة المصابة فتفقد سيطرتها على نفسها فتنسى كرامتها وصونها. وفيه قول المهلهل في رثاء كليب إنهم كانوا يغارون على نساءهم أن يبرزن من خدورهن، فلما قتل كليب خرجن حواسر عواطل من حليهن:

بالأمس خارجة عن الأوطان	كنا نغار على العواتق أن تُرى
مستيقنات بعده بهوان	فخرجن حين ثوى كليب حُسراً
إذ حان مصرعه من الأكفان	فترى الكواعب كالظباء عواطلا
من بعده ويعدن بالأزمان	يخمشن من آدم الوجوه حواسراً

(ابن الأثير، ١٩٦٦م، ج ١: ٥٣٠)

وفي موضع آخر يضيف كشف الذراع إلى جانب الوجه للحرمة عند البكاء والجزع من دون أن يأخذها باللوم قائلاً:

وذراع باكية عليها برئس	وإذا تشاء رأيت وجهاً واضحاً
تأسى عليك بعبرة وتنفس	تبكى عليك ولست بلائم حرة

(الحوفي، ١٩٨٠م: ٣٧٣)

وكان من عادة الجاهليين عند البكاء على الميت شقّ الجيوب وكان يقال للتي تشقّ جيبيها «الشاقة» (الشورى، ١٩٨٣م: ١٦٠). وحتى أن الرجل منهم كان من دأبه أن يوصى بذلك. وهذه عقلية جاهلية كان يؤمن بها أصحابها كطرفه الشاعر فهو يعتبر اللطم وشقّ الجيوب للفقيد احتراماً وإكراماً له فلذلك يوصى أهله بشقّ الجيب خاصة أنه يعتبر نفسه مستحقاً للندبة والجزع إذ أن له رفعة ليست لغيره وهو ينفع ما لا ينفع سواه وقد شهد معارك لم يشهدها مثيله. يقول طرفه بن عبد في وصية له لابنة أخيه:

فإن متّ فانعيني بما أنا أهله وشقّي علىّ الجيب يا ابنة معبدٍ

ولا تجعليني كامريٍّ ليسَ همَّه كهمِّي ولا يغني غنائِي ومشهدِي

(الحسيني الكاشاني، ١٤٠٠ق، ج:١، ٢٦٩؛ البستاني، لاتا، ج:١، ٦٦)

هذا وقد يتغير تستر المرأة في مثل هذه الظروف المؤلمة الحزينة فهي بدلاً من لبس الملابس ذات الألوان الزاهية، قد تقتصر على ملابس الحزن. كما كان يتوقع صخر من أختها خنساء ذلك أي تمزيق الخمار ولبس الحداد - وهو الصدار^١ - فيما يتحدث عنها قبل موته: (نجيب عطوي، ١٩٩٣م: ٦٢)

والله لا أمنحها شزارها ولو هلكت مزقت خمارها

وجعلت من شعر صدرها

يستشف لنا باستعراض هذه الأشعار وما سنوافيه بكم فيما بعد بأن المرأة الجاهلية كانت ملتزمة التزاماً كاملاً أو نسبياً بنوع من الستر لا يمكن إنكاره. فالحالة العامة لديهم أن المرأة كانت محجبة إلا في مثل هذه الظروف الصعبة المكروهة المفضية بها إلى البروز من الخدور والكشف عن الستر والقناع والنقاب، وفي مثله قول الشاعر يخاطب حبيبته في شعره مشيراً فيه إلى بروزها عن الخباء والكشف عن نقابها لما اعترها من الحزن المؤلم عند الفراق قائلاً:

ولما تبدت للرحيل جمالنا	وجدنا سيرا وفاضت مدامع
تبدت لنا مذعورة من خبائها	وناظرها باللؤلؤ الرطب دامع
أشارت بأطراف البنان وودعت	وأومت بعينيها متى أنت راجع
فقلت لها والله ما من مسافر يسير	ويدرى ما به الله صانع
فسالت نقاب الحسن من فوق وجهها	فسالت من الطرف الكحيل مدامع

(الأبشي، ١٩٨٦م، ج:٢، ٨٨)

ولبيد له أبيات من الشعر يلمح فيها إلى تخدر المرأة وتسترها، لكنها عند المصيبة وذرف الدموع الغزيرة تفقد صوابها وتخرج من خدرها وتقوم بلطم الوجه والعيول

١. الصدار بكسر الصاد: ثوب رأسه كالمقنعة، وأسفله يغشى الصدر والمنكبين تلبسه المرأة، وكانت المرأة التكلي إذا فقدت حميمها فأحدث عليه لبست صداراً من صوف.



فيقول:

فلم أر يوماً كان أكثر باكياً وحسناً قامت عن طرافٍ مُجَوِّرٍ
تبلّ خموش الوجه كلُّ كريمةٍ عوانٍ وبِكرٍ تحتَ قرٍّ مَخْدَرٍ^١

(البستاني، لاتا، ج: ١: ١١٨)

وقد صرح الربيع بن زياد العبسي في شعره بعد مقتل مالك بن زهير بأن المرأة الجاهلية الحرة متحجبة من غير وقت العزاء والمصيبة وأنها بعد أن أخرت البكاء لأخذ الثأر تخرج حاسرة لإقامة العزاء وفيه قال الشاعر:

من كان مسروراً بمقتل مالك فليات نسوتنا بوجه نهار
يجد النساء حواسراً يندبهنه يلظمن أوجههن بالأسحار
قد كن يخبان الوجوه تستراً فاليوم حين برزن للنظار
يضربن حرّ وجوهنّ على فتىً عفّ الشمائل طيب الأخبار

(الإصهاني، لاتا، ج: ١٧: ١٨١)

وقال مهلهل يرثي كليباً مملّحاً بالبروز من الخدور بعد الفاجعة:

على أن ليس عدلا من كليب إذا برزت مخبأة الخدور

(السيد المرتضى، ١٩٠٧ م، ج: ٢: ١٣٢؛ الإصهاني، لاتا، ج: ٥: ٥٨)

ومثله قول ليلى بن طريف في رثاء أخيها الوليد:

بكت تغلبُ الغلباء يوم وفاته وأبرزَ منها كلُّ ذات نصيف

(الحوفي، ١٩٨٠ م: ٦٦٨)

واستمر هذا العرف عند البعض بعد ظهور الإسلام قال أبو ذؤيب الهذلي في توقعه ما تفعل بنته بعد موته من ضرب صدورهن حواسراً بالنعال:

وقام بناتي بالنعال حواسراً وألصقن وقعَ السَّبْتِ^٢ تحت القلائد

(الحوفي، ١٩٨٠ م: ٣٠٨)

١. الطراف: الخيمة من أدم. مجوّز: مقوّض، ساقط. تبلّ: أى تبلّ خدوش الوجه بالدم. العوان: المرأة في منتصف عمرها. القرّ: اليهودج. المخدّر: المستر بالثيابة.

٢. السَّبْت: النعال المدبوغة بالقرظ.

ولما جاء الإسلام رفض الكثير مما كان يعترف به في العهد الجاهلي من السفور وخمش الوجوه وشق الجيوب وما إلى ذلك. ورد النهي عنه في الأحاديث الشريفة، ففي صحيح مسلم روى عن الرسول (ص) أنه: «ليس منا من صلق أو حلق أو خرق» (المتقى الهندي، لاتا، ج ١٥: ٦١٠) أي: ليس منا من رفع صوته أو حلق شعره أو شق جيبه عند الموت. وعن أماتة أن رسول الله (ص): «لعن الخامشة وجهها والشاقّة جيبها والداعية بالويل والثبور». (نوري، لاتا، ج ٢: ٤٦٧)

فذلك قد تغيرت العقيدة الجاهلية إلى الإسلامية متأثراً بدين الله وهذا أبو فراس الحمداني يوصي ابنته قبيل وفاته سنة ٣٥٧هـ أن لا تنوح وتبكي إلا من وراء الستر والحجاب فهو يقول:

أ بُنِيَّتِي لَا تَجْزَعِي كُلُّ الْأَنَامِ إِلَى ذَهَابِ
نُوحِي عَلَيَّ بِحَسْرَةٍ مِنْ خَلْفِ سِتْرِكَ وَالْحِجَابِ

(ابن قيس، ١٩٩٧م، ج ١: ١١٣)

٢. إبداء الحسن والزينة

إن المرأة الجاهلية لم تكن ملتزمة بالستر والحجاب وكان لها الحرية في إبداء الزينة ومشاركتها الرجل في كثير من أعماله في رعى الغنم ونضح الماء وفي البيع والابتياح وارتياح الأسواق والحج إلى بيت الله الحرام. قد ذكر الأصمعي: «أن المرأة كانت تلقى خمارها لحسنها وهي على عفة». (الحوفي، ١٩٨٠م: ٣٧٠) فمن أجل ذلك نزل قوله تعالى: ﴿... وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ...﴾ (النور: ٣١) إن الله تعالى صور الحياة الثقافية الجاهلية في هذه الآية الكريمة بأن المجتمع الجاهلي كانت السمة السائدة على بناتها إبداء الزينة إغراءً للرجال واستمالة لهم. فمن أجل ذلك نرى أن القرآن الكريم كيف ينهى المرأة من أن تبدي بواطن زينتها للأجانب وتفرض عليها ستر البدن بكيفية لا تجلب أنظار الأجانب وكل ذلك اتقاءً لشرّ الفتنة وحذراً من الوقوع في الحب المفرط. واندفاعاً بذلك نرى



الحطية بعد الإسلام بيتدع في وصف الزينة ويعتبر الخمر والمعاطف والأزر كزينة أخرى للمرأة إلى جانب تزينها بالحلي فيقول في نسيب من هجائه لبني بجاد:

إلى طفلة الأطراف زين جيدها مع الحلى والطيب المجاسد والخمر
من البيض كالغزلان والغر كالدمى حسان عليهن المعاطف والأزر

(البستاني، لاتا، ج ٢: ٣٨)

كما يبدو أن البعض الآخر قد أسرفن في السفور والتبرج عند الخروج فنهاهن الله عن ذلك بقوله الكريم: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى...﴾ (الأحزاب: ٣٣) والشاهد على ذلك كثير في أشعار الغزليين الجاهليين والأمويين خاصة أن المرأة الجاهلية كانت تزهو بحسنها وجمالها وتعتبر الشعر تكريماً لها أو لأتراب لها، لا يسبقها في الحسن والجمال وهي ترجو أن يتسابق في وصفها الشعراء ويتغنوا باسمها ما يجعلها رفيعة الشأن، ذائعة الصيت. من ذلك أن خرقاء العامرية - على سبيل المثال - كانت في طريق الحاج وكان جمهرة من الشعراء يمرون بها، ويجدون من حسن وفادتها، ما تجد هي من غزلهم، ورقة أشعارهم وكل ذلك من أجل أنها كانت تنكشف لهم وتبدى لهم ما كانت لها من الزينة وعشرة الكلام. ومن هؤلاء ذوالرمة يقول فيها:

تمام الحج أن تقف المطايا على خرقاء واضعة اللثام

(أبورحاب، ١٩٤٧م: ٢٤)

لكن عمر بن أبي ربيعة من بعد الإسلام كان من أولئك الذين لم يكن يتمتع بذلك دائماً عند أيام الحج لأن من المسلمات من كانت تنستر بوجهها ورأسها سوى الكفين والمعصم وفيه يقول:

لقد عرّضت لي بالمحصب من منى لِحِينِي شمسٌ سُتِّرتَ بيمانِ
بدا لي منها معصمٌ يومَ جَمَرَتِ وكفُّ خضيبُ زُينتَ ببنانِ
فوالله ما أدرى وإني حاسبٌ بسبعِ رميتُ الجمرَ أم بثمانِ

(البستاني، لاتا، ج ٢: ٣٨)

١. المحصب: اسم الشعب الذي مخرجه إلى الأبطح بين مكة ومنى، سمي بذلك لكثرة الحصاء فيه. الحين: الهلاك. اليماني: ثوب منسوب إلى اليمن.

وهكذا نجد ابن علس الشاعر الجاهلي أنه كيف يصف سلمى لكشف قناعها إدلالاً بحسنها، وسيباً لحبيبتها، جرياً على عرف معروف في القبيلة، حيث قال ابن علس:

أرحلت من سلمى بغير متاع قبل العطاس ورعتها بوداع
إذ تستبيك بأصلتي ناعم قامت لتفتنه بغير قناع^١

(السيد المرتضى، ١٩٠٧م، ج ٣: ٢٢؛ الشيخ الطوسي، ١٤٠٩ق، ج ٤: ٥٥٦؛ الشيخ الطبرسي، ١٣٧٩ق، ج ٤: ٣٦٧)

أما من غير أيام الحج فلم يكن الشعراء ليغفلوا عن وصف جمال النساء الطاعنات، ووصف حليهن وكيف يغفلون وهذا وقت الزينة؟ إن المرأة إذا ما سافرت أخذت زينتها؛ لأنها تعلم أن نساء الحى سيرينها حين يودعنها، ولأنها تعلم أنها قد تلقى فى الطريق نساء آخر مرتحلات مثلها، فيوم سفرها يوم زينتها، وتبرجها لهذا كن يسبين بجمالهن وحليهن وحركاتهن قلوب الرجال. والمثقب العبدى يصف النساء المرتحلات وهن على المراكب جالسات قد أبدين عيونهن من خلال الوصاوص وسترن الجياد وأجسادهم وأظهرن بعض الزينة المتسربل على صدورهن. قال المثقب العبدى بعد أن ذكر طرق الرحلة:

وهن على الرجائز واكنات قواتل كل أشجع مستكين
كغزلان خذلن بذات ضأن تنوش الدانيات من الغصون
ظهن بكلة وسدلن أخرى وثقبن الوصاوص للعيون
وهن على الظلام مطلبات طويلات الذوائب والقرون
أرين محاسنا وكنن أخرى من الأجياد والبشر المصون
ومن ذهب يلوح على تريب كلون العاج ليس بذى غزون^٢

(البستاني، لاتا، ج ١: ١٩٨)

١. العطاس: الصبح؛ لتفتنه أى: لتكشفه وتبرزه والسبى: الأسر، وأصلت الجبين: واسع، والياء للمبالغة والناعم: اللين الملمس.

٢. الرجائز: مراكب النساء. واكنات: مطمئنات. الأشجع: الطويل. خذلن: تخلفن عن صواحبهن وأقمن على أولادهن. الضأن: السدر البرى. تنوش: تتناول. الوصاوص: البراقع الصغار، أراد أنهن حديثات الأسنان فبراقعهن صغار، وقيل إنه لقب بالمثقب لهذا البيت. الظلام: الظلم.



وقال أبو النجم العجلي:

من كل عجزاء سقوط البرقع
بلهاء لم تحفظ ولم تضيع^١

(السيد المرتضى، ١٩٠٧م، ج ١: ٣١ و ٣٢)

فأراد الشاعر من قوله «سقوط البرقع» أنها تبرز وجهها ولا تستره ثقةً بحسنه وإدلالاً
بجماله. ومثل قوله «سقوط البرقع» قول الشاعر عمر بن أبي ربيعة:

ولما تفاوضنا الحديث وأسفرت
وجوه زهاها الحسن أن تتقنعا^٢

(الاصفهاني، لاتا، ج ٨: ١٥٣)

إن التبرج وبالتالي مواجهة النساء البارزات يوقع القلوب في الحب ويطمعها التمتع
بالنظر أو التلذذ بالحديث والسماع والوصال، والذي يراجع تاريخ العشاق في حياتهم
سيرى أنه كيف وقعوا في أحاييل الحيل الشيطانية لأجل عدم التزام المرأة بالستر المناسب
والقول المعروف وعدم غض البصر من جانب الرجل.

وقد استدام الزهو بالجمال إلى جانب الإعتداد بالتصون كباعث للمرأة على السفور
في الإسلام، فقد عاتب مصعب بن الزبير عائشة بنت طلحة في سفورها فقالت: إن الله
تبارك وتعالى وسَمنى بميسم الجمال، فأحبيت أن يراه الناس، ويعرفوا فضله عليهم، فما
كنت لأستره، والله ما فيّ وصمة يقدر أن يذكرني بها أحد. (الاصفهاني، لاتا، ج ١٠: ٥١)

وفيه تسجيل من الشعراء لمثل هذا الموقف كقول الشماخ:

بها شرق من زعفران وعنبر
أطارت من الحسن الرداء المحبّرا

(السيد المرتضى، ١٩٠٧م، ج ١: ٣٢)

أى رمت بها عنها ثقة بالجمال والكمال. ومثله وهو مليح:

لهونا بمنجول البراقع حقبة
فما بال دهر لزنا بالوصاوص^٣

فإنه أراد الشاعر «بمنجول البراقع» اللاتي يوسعن عيون براقعهن ثقة بحسنهن ومنه

١. قوله «لم تحفظ»: أراد أن استقامة طرائقها تغنى عن حفظها وأنها لعفاها ونزاهتها غير محتاجة إلى مسدد

وموقف، وقوله: «لم تضيع» أراد أنها لم تهمل في أغذيتها وتعيمها وترفيها فتشقى.

٢. وفي بعض النسخ ورد المصراع الأول: «فلما توافقنا وسلمتُ أشرقت».

٣. الوصاوص: هي النقب الصغار للبراقع.

الطعنة النجلاء والعين النجلاء ثم قال: ما بال دهر أحوجنا واضطربنا إلى القباح اللواتى يضيقن عيون برآقعهن لقبههن.

٣. الفقر والجوع

كان من دواعى السفور لدى المرأة الجاهلية معاناتها من الجوع والفقر. حيث إنها إذا تضرّرت جوعاً وانماثت عطشاً تركت العزلة والخفر وخرجت عن احتجابها وحضرت محضراً السوء سداً للجوع وكسباً للرزق. وقد بدت خطورة عملها هذا عند العرب غيراً منهم عليها فتنافوا فى الاحتفاظ عليها حرصاً على العرض وخوفاً من الفضيحة. من الصعاليك هذا عروة بن الورد جمع صفات الصعلكة إلى درجة عالية من الشجاعة، والجود، وكرم النفس، وبعد الهمة والتصوّن عن الفحش حتى روى عن عبد الملك: «من زعم أن حاتماً اسمح الناس فقد ظلم عروة ابن الورد.» (البستاني، لاتا، ج: ١: ١٩) فعروة كذلك عفيف البصر وعديم النظر إلى من لا تحلّ له ومن شعره:

ولا يستضام، الدهر، جارى، ولا أرى كمن بات تسرى للصدى عقاربُه
وإن جارتى ألوت رياح بيتها تغافلت حتى يستر البيت جانبُه

وها هو نفسه نراه من جهة ثانية مترفعاً عن دنس الريبة لحليلته ومغياراً يغار عليها من تهتك سترها والمحضر السىء أى ظهورها بعدم التستر للمسألة والطلب ويقول:

ذرينى أطوف فى البلاد لعلنى أخليك أو أغنيك عن سوء محضر
فإن فاز سهم للمنية لم أكن جزوعاً وهل عن ذاك من متأخر
وإن فاز سهمى كفكم عن مقاعد لكم خلف أدبار البيوت ومنظر

(البستاني، لاتا، ج: ١: ٢١)

مما يجدر الانتباه إليه أن عبارة «سوء محضر» و«مقاعد ومنظر خلف أدبار البيوت» يكتفى بها عن السؤال والطلب عند الشدة والضيق مما يؤدى إلى الخروج عن الخدور وعدم التستر وهذا ما لا تقبله نفوسهم الأبية الغيورة ودلالة ذلك فى قول لبيد بن ربيعة الذى عاش فى قومه عيشة السادة مقيماً للضيف، منجداً للضعيف ومترفعاً عن التكسب



بالشعر حتى ظهر الإسلام فدخل فيه مع فريق من قومه العامريين في حدود سنة ٦٣٠م. يذكر سادات قومه المتوفين ويمدح منهم إلى أن يقول:

وبالفورة الحرابُّ ذو الفضلِ عامرٌ فنعمَ ضياءُ الطارقِ المتنورِ
ونعمَ مُناخُ الجارِ حلَّ ببيتهِ إذا ما الكعابُ أصبحت لم تسترِ

(البستاني، لاتا، ج: ١، ١١٨)

شاهد القول في البيت الثاني في «إذا ما الكعاب...» فيريد أن يقول إن الجارية الحسنة أصبحت لم تستر من الجوع والجهد لأنها تترك التعزل والخفر، إذ ذاك. فهنا يصف جودهم وغيرتهم على حفظ أعراض الجار وهناك عروة كان يحذر أهله من سوء مثل هذا الحضور الفاضح البشع.

٤. كراهية السبي (الخوف والفرع)

إن المرأة كانت تعتز بحريتها وتبغض هوانها بالسبي خاصة أنها تبتعد عن وطنها وتفقد أهلها في الغربة. ففي الحروب كانت المرأة العربية الجاهلية تسفر إذا أيقنت هزيمة قومها وخشيت السبي فتشبهه بالأمة حتى يُرهد فيها وتتأهب للفرار سافرة، يقول قيس بن الخطيم:

صبحناكم شهباءَ يبرُقُ بيضُها تبينُ خلاخيلَ النساءِ الهواربِ

(القرشي، ١٩٢٦م: ٢٥٢)

ويقول عوف بن عطية التميمي:

ولنعم فتیانُ الصباحِ لقيتمُ وإذا النساءِ حواسرُ كالعنقرِ
من كلِ واضعةِ الخمارِ وأختها تسعى ومنطقها مكانَ المئزرِ

(الضبي، لاتا، ج: ٢، ١٢٧)

ويشير طرفة إلى الكشف عن السوق حين الهول والفرع من الحرب والتأهب من

١. العنقر: أصول القصب والبقل والبردى مادام أبيض. منطقها مكان المئزر، سقط إزارها من فرعها فظهر منطقها.

الفرار، وهن يفعلن ذلك خشية السبي فيسفرن ليظن أنهن إماء:

يوم تُبدى البيض عن أسوقها وتلف الخيل أعراج النعم
(الاصفهاني، لاتا، ج ٥: ٥٠؛ وج ٢٤: ٨٥)

ويقول المهلهل:

على أن ليس يوفى من كليب إذا برزت مخبأة الخدور
(الاصفهاني، لاتا، ج ٥: ٥٣)

ويقول سبرة بن عمرو الفقعسي في هجاء بني نهشل إن نسوتهم تشبهن بالإماء مخافة
السباء فبرزن مكشوفات:

ونسوتكم في الروع بادٍ وجوهها يُخلن إماء والإماء حرائر
(البغدادى، لاتا، ج ٩: ٥٠٩)

ومن قول بشر بن أبي خازم في هذا المعنى:

فلما أيقنوا بالموت ولّوا شلالاً مُرملين بكلّ قاع
وكم من مُرضعٍ قد غادروها لهيف القلب كاشفةً القناع
ومن أخرى مثابرةً تنادى ألا خليتمونا للضياع

ومن دلالات السفور عند الخوف والفرح ما كان للشاعر توبة بن حمير فيقال إنه:
إذا أتى ليلي الأخيالية خرجت إليه في برقع فلما شهر أمره شكوه إلى السلطان فأباحهم
دمه إن أتاهم فمكتوا له في الموضع الذي كان يلقاها فيه فلما علمت به خرجت سافرة
حتى جلست في طريقة فلما رآها سافرة فطن لما أرادت وعلم أنه قد رصد وأنها سفرت
لذلك تحذره فركض فرسه فنجا. وذلك قوله:

وكنت إذا ما زرت ليلي تبرّعت^١ فقد رابني منها الغداة سفورها
وقد رابني منها صدود رأيتہ وإعراضها عن حاجتي وبسورها
(الاصفهاني، لاتا، ج ١: ٢١١)

١. البرُّقع: والبرُّقع والبرِّقع: ما تستر به المرأة وجهها، والجمع: البراقع. تبرّعت المرأة: لبست البرقع. وبرقعها: ألبسها إياه. (يوسف موسى والصعدي، ١٤١٠ق، ج ١: ٣٧٤)



فقال الحجاج يا ليلي ما الذي رابه من سفورك فقالت أيها الأمير كان يلّم بي كثيراً فأرسل إليّ يوماً إنى آتيك وفطن الحيّ فأرصدوا له فلما أتاني سفرت عن وجهي فعلم أن ذلك لشر فلم يزد على التسليم والرجوع فقال لله درك. (زكى صفوت، لاتا، ج ٢: ٤١٠) كما يبدو من البيت الثالث أن ليلي كانت تتبرقع على النمط الجاهلي حتى أمام حبيبها ولكنها عندما اقتضت الحاجة ولكي تنبىء عن أمر خطير كشفت عن برقعها وهذا ما يدل على أن التستر كان يلتزم بها البعض بشكل غير ما فرضت في الإسلام. ومن ذلك ما قال الأعرج في هذا المعنى:

أرى أم سهل ما تزال تفجع تلوم وما أدري علام توجع
تلوم على أن أمنح الورد لُقحةً وما تستوى والورد ساعة تَفزع
إذا هي قامت حاسراً مشمعةً نخيب الفؤاد رأسها ما تُقنع^١

(الزبيدي، ١٩٩٤م، ج ٢٠: ٤١٢)

وقال الشمردل بن شريك في رثاء أخيه وائل ومدحه بأنه كان موثلاً لنساء مروّعات، فزعات في يوم كربه كادت المرأة تكشف فيه عن خلايلها فرقاً من السبي:

إذا استعبرت عوداً للنساء وشمرت مآزر يوم لا تُوارى خلاخله
وثقن به عند الحفيظة فارعوى إلى صوته جاراته وحلاته

(الاصفهاني، لاتا، ج ١٢: ١١٣)

ولم يقتصر الحديث عن السفور لمثل داعية الرعب على العهد الجاهلي وإنما طرّقه شعراء آخرون في أشعارهم فيما بعد الإسلام كما لمح الحطيئة إلى هذا الدأب الجاهلي في شعره قائلاً من فخره:

ونحن إذا ما الخيلُ جاءت كأنها جرادٌ زفت أعجازه الريحُ منتشر

١. اللقحة: الناقة التي بها لبن، والورد: اسم فرسه. الحاسر: المنكشف الرأس، والمشمعل: الجاد في جريه، والنخيب: الضعيف، والمقنع: اللابس القناع. يقول: وما تستوى أم سهل مع الورد ساعة الفزع إذا قامت أم سهل مشمعة أي جادة في الجرى. نخيب الفؤاد: أي طائرة اللب لإقناع على رأسها لدهشتها وهذا بيان لحالها ساعة الفزع.

إذا الخفرات البيض أبدت خدامها وقامت فزالَت عن معاقدها الأزرُ
 ويقول مهيار الديلمي مشيراً إلى هذا التقليد الجاهلي في وصف بيت لمروحة
 الخيش:

ومنشورة سترت نفسها
 وعزّت فصانت سوى ساقها
 تشمّرُ عنه جلايبها
 فكادت تواريه ضناً به
 فخاطت قميصاً ولاثت خماراً
 وما إن أباحتها إلا اضطراراً
 لعادته أن يخوض الغمارا
 ومن حسنها أنه لا يُورى
 تشكّكنى وهي طوع الرياح
 تتبعها يمنة أو يساراً

(البستاني، لاتا، ج ٣: ٢١٠)

إنّ هذا العرف قد اندرس بعد ظهور الإسلام بكثير وبقي الالتزام بالحجاب في معمعة الحرب وصروف الدهر غاية اعتقادية ذات قيمة ملموسة لن تتخل عنه المسلمة العربية المؤمنة بالله ورسوله وقد بلغ ذلك مبلغ كماله عند عترة النبي (ص) خاصة في يوم عاشوراء. قال العلامة المحقق المرحوم المقدم في كتابه «مقتل الحسين»: «لما قتل أبو عبدالله الحسين عليه السلام مال الناس على ثقله ومتاعه وانتهبوا ما في الخيام وأضرموا النار فيها وتسابق القوم على سلب حرائر الرسول (ص) ففررن بنات الزهراء (ع) حواسر مسلبات باكيات وأن المرأة لتسلب مقنعتها من رأسها وخاتمها من إصبعها وقرطها من أذنها والخلخال من رجلها» (المقدم، ١٤١٤ق: ٣٠٠). يقول الشريف الرضى واصفاً أهل بيت الرسول (ص) في يوم الطف في مريته لحسين بن علي (ع):

ليس هذا لرسول الله يا
 جَزَرُوا جَزَرَ الأضاحي نسله
 أمّة الطغيان والبغي، جزا
 ثم ساقوا أهله سوقَ الإما
 معجلات لا يوارين ضحى
 سنن الأوجه أو بيض الطلى

(البستاني، لاتا، ج ٣: ١٨٢)

١. زفت: استخفته وحملته. الخفرات: النساء الحيات. الخدام: مفردها خدمة: الساق، وهو كناية عن الفرع والهرب وقت الحرب.



هَاتِفَاتِ بِرَسُولِ اللَّهِ فِي بُهْرِ السَّعْيِ وَعَثْرَاتِ الْخُطَى
يَوْمَ لَا كَسَرَ حِجَابٍ مَانِعٌ بِذَلَّةِ الْعَيْنِ وَلَا ظِلَّ خِبا
وقال عبد المنعم الفرطوسي من قصيدة له:
وكم حرة حسرى بدت من خباؤها وليس لديها ساتر غير «مرفق»

(المقرم، ١٤١٤ق: ٣٠٠)

إنه قد أكثر الشعراء من وصف هذه الرزية العظيمة وما أدراك ما هي؟ إن زينب بنت علي بن أبي طالب (ع) عندما ألفت تلك الخطبة الغراء في مجلس يزيد بن معاوية بعد واقعة الطف أول ما بثت عن نفثاتها المصدورة كان لها شكوى عن هتك الستور والكشف عن الوجوه فقالت: «أمن العدل يا ابن الطلقاء، تخديرك حرائك وإماءك، وسوقك بنات رسول الله سبايا. قد هتكت ستورهن، وأبديت وجوههن، تحدو بهن الأعداء من بلد إلى بلد، ويستشرفهن أهل المناهل والمعازل، ويتصفح وجوههن القريب والبعيد، والذنى والشريف، ليس معهن من حماتهن حمى ولا من رجالهن ولى...» (المقرم، ١٤١٤ق: ٣٥٨)

٥. إبراز المحبة

ومن أسباب سفورها شق الرداء والبرقع لدوام المحبة. زعموا أن المرأة إذا أحببت رجلاً أو أحبها ولم تشق عليه رداءه ويشق عليها برقعها فسد حبهما قال الشاعر:
إذا شقُّ بُردٍ شقُّ بالبرِّدِ برقعٌ دوأليك حتى كلنا غير لابس
فكم قد شققنا من رداء محبر ومن برقع عن طفلة غير عانس

(القلقشندی، ١٩٨٧م، ج ١: ٤٦٤)

وفي «الأغانى» عن علي بن المغيرة الأثرم قال: قال أبو عبيدة الذى تنهى إلينا من حديث سحيم عبد بنى الحسحاس إنّه جالس نسوة من بنى صبير بن يربوع وكان من شأنهم إذا جلسوا للتغزل أن يتعابتوا بشقّ الثياب وشدة المغالبة على إبداء المحاسن، فقال سحيم:

كأن الصبيريات يوم لقيننا
فكم قد شققنا من رداء منبر
إذا شق برد شق بالبرد برقع
ظباء حنت أعناقها في المكانس
ومن برقع عن طفلة غير ناعس
على ذاك حتى كلنا غير لابس

(الاصفهاني، لاتا، ج ٢٢: ٣١٠)

٦. عرف القبيلة

إنه قد لا يكون السفور دليلاً من أجل عرض الجمال أو الافتخار بالكمال أو المكانة وإنما قد يعود سببه إلى عرف القبيلة وعدم اعتقادها بلزوم التستر فالمرأة حينئذ لا تغطي نفسها بستر خضوعاً لعرف القبيلة خاصة إذا كانت على ثقة من عفاف الجار، يقول الشنفرى:

عفاهيّة لا تقصّر الستر دونها ولا ترتجى للبيت إن لم تُبَيّت

(ابن منظور، لاتا، ج ١٣: ٥١٨؛ الاصفهاني، لاتا، ج ٢١: ٩١)

كما رويت عن عائشة أخبار عدة في المصادر الروائية والتفسيرية تثبت أن بعض النساء كن يسفرن تبعاً لتقاليد القبيلة الموروثة من ذلك قولها: «إن نساء الأنصار لما نزلت سورة النور عمدن إلى حُجُور أو (حجوز) فشققنهنّ فاتخذن خمرأاً.» وقولها: «يرحم الله النساء المهاجرات الأول، لما أنزل الله: ﴿... وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ...﴾ (النور: ٣١) شققن أكثف مروطنّ فاختمن بها.» وروى عن أم سلمة أنّها لما نزلت: ﴿... يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ...﴾ (الأحزاب: ٥٩) خرج نساء الأنصار كأن على رؤوسهنّ الغربان من الأكسية.» (السجستاني، ١٩٩٠م، ج ٢: ٢٦٩)

فعلى ذلك كان السبب الرئيسي والأكثر تأثيراً لسفور المرأة الجاهلية هو عرف القبيلة. وفيه يقول الجاحظ: «إنّ الغالبية في النساء الجاهلية أنهن كن سوافر حواسر مكشوفات الوجوه والجيوب إذ لم يكن بين الرجال والنساء حجاب ولا كانوا يرضون مع سقوط الحجاب بنظرة الفتنة ولا لحظة الخُلسة... ثم كانت الشرائف من النساء يقعدن للرجال للحديث ولم يكن النظر من بعضهم إلى بعض عاراً في الجاهلية ولا حراماً.»



(الحوفي، لاتا: ٣٦٩ نقلاً عن رسالة القيان للجاحظ ص ٥٦) وكانوا إذا توسم رجل منهم نظرة إلى امرأته أو أخته أو ابنته بريئة تُطلب الناظر إلى التبارز أو التجالد أو المصارعة، وربما نشب القتال بين القبائل غيرة على نظرة مربية (واجدة مجيد، ١٩٨١م: ٣٠). فإلى ذلك حمد الرجل سيرته إذا ما كان له نظرة طيبة طاهرة بريئة من الريب أو له غض من البصر عند التقاءه بالمرأة الأجنبية. قال ابن حبيب: قال عبد الملك لمؤدب ولده إذا رويتهم شعرا فلا تروهم إلا مثل قول العجير السلولي:

يبين الجار حين يبين عنى ولم تأنس إلى كلاب جارى
وتظعن جارتى من جنب بيتى ولم تستر بستر من جدارى
وتأمن أن أطلع حين آتى عليها وهى واضعة الخمار
كذلك هدى آبائى قديما توارثه النجار عن النجار

(الاصفهانى، لاتا، ج ١٣: ٨١)

كما هو بين إن العرب الجاهلي كان لديهم لبس الخمار معروف، لكن الأمر لم يكن سائداً دائماً بينهم ولم يكن الالتزام بلبسه جارياً فى كل الظروف فى ثقافتهم فالمرأة الجاهلية أحياناً إذا اطمأنت من عفاف أحد لم تتعهد بالستر ووضعت الخمار مثل ما مرّ فى قول السلولى حيث وضعت الجارة الخمار لاطمئنان لها من جارها. وهذا هو التراث القبلىّ الثقافىّ الذى انتقل من جيل إلى جيل.

وللحاتم الطائى كلام يذكر فيه رفته لجارتها لدى غياب البعل من دون زيارتها أو إلقاء نظرة عليها مما يدل على أهميّة التعفّف والتباهى به كفضيلة أخلاقية لدى الرجل واعتزاز المرأة بعفتها واعتدادها بتصونها من دون أن يُقصر عليها ستر أو حجاب. فيقول:

سيبلغها خيرى ويرجع بعلمها إليها ولم يقصر على ستورها

(الطائى، لاتا: ٥٢)

وله إشارة أخرى إلى تكريم المرأة فى تسترها عند غياب زوجها وهى أنه لا يأتى الجارة ليلاً وبعلمها غافل أو غائب عنها إلا إذا اضطر إلى حمل طعام أو هدية إليها وذلك باطمئنان من عفة البصر ومعروف الكلام وعدم الافتنان حيث بعلمها لا يمسّ عرضه



لا نطرق الجارات من بعد هجعة
ولا يلطم ابن العم وسط بيوتنا
من الليل إلا بالهدية تحملاً
ولا نتصّبى عرسه حين يغفل^١

(الطائي، لاتا: ٧٢ و ٧٣)

المرأة الجاهلية وأسباب سترها الدلالات الذاتية (الفطرة، الغيرة)

١. الفطرة

إنّ الفطرة البشرية النبيلة تميل إلى ستر المرأة وعفافها وطهارتها وحياءها فكلما تحلّت المرأة بزينة العفاف والحياء والتمنع أكثر تجلّى منها الجمال النفسى للرجل أكثر حتى ولو كان الرجل فاسقاً مستهتراً لا يغار على أهله. فنفاسة المرأة لاتتأتى فى الوهلة الأولى إلا من وراء التصون وكونها بكرًا. وعلى ذلك قد استهوى الخلق الطاهر الأعشى - وهو صاحب خمر ولذة حسية - ورفضت ذاتيته الدعارة وقلة الحياء من المرأة وخلق من عقليته المنبعثة عن سرّ باطنه امرأة طيبة السمعة لا تتناولها الألسن وهى المطلوبة له فيقول:

أو بيضة في الدّعص مكنونة
يشفى غليل النفس لاه بها
ليست بسوداء ولا عنفص
عبهرة الخلق بلاخية^٢
أو دُرّة شيفت لدى تاجر
حوراء تُصبى نظر الناظر
تسارق الطرف إلى الداعر
تشوبه بالخلق الطاهر^٣

(الحتي، لاتا: ١٧٨)

١. يلطم: المضارع من لطم يلطم فلاناً: ضرب صفحة خده بباطن الكف، واللطم المقصود هنا ليس الصفع باليد أو الكف ولكنه النيل من شرف الملطوم والإساءة إلى عرضه. العرس: الزوجة. حين يغفل: سهما عنه وتركه.
٢. عنفص: بذينة قليلة الحياء أو داعرة. عبهرة: عظيمة حسنة الخلقة. بلاخية: طويلة لينة. وفى نسخة (الفراهيدي، ١٤١٤ق، ج ٤: ٢٢٥؛ والزبيدي، لاتا، ج ٤: ٢٩١) هكذا ورد: عبهرة الخلق طباخية تزينه بالخلق الطاهر؛ والطباخية: شابة مكنزة.



بناء على هذه الفطرة الموهوبة قال الله تعالى في تشجيع الإنسان على عمل الخير والعفاف: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيِّضٌ مَّكْنُونٌ﴾ (الصفات: ٤٩) فعلماً برغبة الرجال إلى عفة المرأة المحصنة وصف نساء الجنة بالمتسترات المصونات فشبههنّ ببطن البيض قبل أن يقشر و تمسّه الأيدي. ومنه قول امرئ القيس وإن كان إباحياً لا يصرفه عن إباحيته شيء لكنه في سرّه المكنون وشخصيته اللاواعية يستهوى المتسترة المكنونة المصونة عن النظر واللمس وهذا المعنى كثير في أشعار العرب:

وبيضة خدر لا يرام خباؤها تمتعت من لهو بها غير معجل
ومنه قوله:

كبكر مقناة البياض بصفرة غذاها نمير المال غير محلل

إنّ الله تعالى أمّل الإنسان بالحوار العين الشبيهات باللؤلؤ المكنون حسب فطرته الطاهرة لعله يرتدع عن غيه وضلاله فلا يكدر الفطرة بحبه وميله إلى الإباحة والسفور وقال في قوله الكريم: ﴿حُورٌ عِينٌ كَأَمْثَالِ اللَّوْؤِ الْمَكْنُونِ﴾ (الواقعة: ٢٣) فشبهنّ باللؤلؤ المكنون أي المستور بما يحفظه لأنه أصفى وأبعد من التغير، وفي الحديث صفاؤهن كصفاء الدر الذي لا تمسه الأيدي (ألوسی، لاتا، ج ٢٧: ١٣٨). وهكذا الشعراء رغماً على ظواهرهم النفسية مدحوا المرأة المكنونة المستورة العفيفة، مثل قول الشاعر عمر بن أبي ربيعة:

وهي بيضاء مثل لؤلؤة الغوا ص ميزت من جوهر مكنون

وهذه من المواضع التي تدل على أن العفاف كان مهتما به عند الشعراء الجاهليين حيث استعملوا كلمة اللؤلؤ في تشبيههم النساء العفيفات المصونات بالدرّة. ووصف الحسنات بذلك شائع في العرب، ومنه قوله:

قامت تراءى بين سجفي كلة كالشمس يوم طلوعها بالأسعد
أو درّة صدفية غواصها بهج متى يرها يهلّ ويسجد

(ألوسی، لاتا، ج ١٤: ١٣٩)

مما يستجلب النظر أن أقصى ما بلغه الشعراء في وصف المرأة أنهم نعتوها بالدرّة

النفيسة لإشراقها وبياضها الناشء عن الصيانة وكونها مكنونة محفوظة غير متيسرة ليد لامسة أو عين ناظرة وغير متعرضة لعارضة شمس أو هواء ليتغير لونها فيذهب بهاءها ووضاءتها، أو جعلوا المرأة درةً يحرسها الجنّ عن رؤية الإنس وإذا ما ظفر به الإنس جعله حارساً يحميها عن أنظار الغير. قد رسم الأعشى الصورة الأخيرة في قصيدته المشهورة «الدرّة الزهراء» وهى من قصائده القليلة التى فرغ فيها للغزل. جعل فيها مارداً من الجن يحرس هذه الدرّة، ولا يغفل عنها ليلاً ولا نهاراً حتى لا يأخذها غواص، وجعل هذا الغواص الذى ظفر بها مترقباً لها مذ كان شاباً فمن قصيدته يقول:

كأنها درةٌ زهراء أخرجها	غواصٌ دارينٍ يخشى دونها الغرقاً
قد رامها حججاً مذ طرّ شاربه	حتى تسعسع يرجوها وقد خفقا
ومارداً من غواة الجن يحرسها	ذونيقّة، مستعدّ دونها ترقاً
ليست له غفلة عنها، يطيفُ بها	يخشى عليها سرى السارين والسرقاً

(الحنى، لاتا: ٢١٨)

وشبهها المسيّب بن علس بالدرّة وأطال فى وصفها وكيفية الحصول عليها، وصور المجهودات والمشقات التى بذلت لاستخراجها من البحر الهائج المواج، حتى لقد ترصدها الغواصون شهوراً، ولم يقدر على صيدها إلا صياد فارح الطول صبور ضامر خفيف، أطلّى بالزيت ليقى جسده من الماء الأجاج، تدفعه الرغبة إلى أن ينال هذه الدرّة، لأنه شديد الحاجة والمسغبة، وهو عاقد العزم على أن ينالها؛ لأن أباه كان يبتغيها من قبل فغرق، فلا بد أن يثأر منها، وقد قضى نصف النهار يفتش عنها، والماء يغمره، ولم ينتن حتى فاز بها، فأخرجها متلاثلة كالجمر، وإن الملاحين ليشاركونه فى إعجابه بها فيسجدون لها، وأنه ليضمها إلى صدره إعزازاً لها، ثم قال: إن هذه الدرّة النفيسة تشبه الحبيبة حين تشرق من خدرها فيقول من مقطوعته الشعرية:

كجمانة البحرى جاء بها	غواصها من لجة البحر
إلى أن يقول:	
فأصاب مُنيته فجاء بها	صدفيّة كمضيئة الجمر



يعطى بها ثمناً ويمنعها ويقول صاحبه ألا تشرى؟
وترى الصراري يسجدون لها ويضمها بيديه للنحر
فلتلك شبه المالكية إذ طلعت ببهجتها من الخدر

(البغدادي، لاتا، ج: ٣، ٢٢٣)

وسلك هذا المسلك في إيجاز، المخبل السعدي في قوله:

وتريك وجهاً كالصحيفة لا ظمآن مختلج ولا جهم
كعقيلة الدر استضاء بها محراب عرش عزيزها العُجم
أغلى بها ثمناً وجاء بها شخت العظام كأنه سهم
بلبانة زيت وأخرجها من ذى غوارب وسطه اللُّخم

(الزبيدي، ١٩٩٤م، ج: ١، ٢٠٤؛ الضبي، لاتا، ج: ١، ١١٣؛ الحوفي، لاتا: ٤٧ و ٤٨)

ولكن أين هذا الوصف الذي اقتصر فيه الشاعر على ابتعاد الإنس عنها دون الجنّ مما جاء في الوحي المنزل في وصف المرأة الخفرة المصونة عن كل لمسة ونظرة حتى عن حراسة الجن حيث لا يبلغ كنه وصفه فكر بشر وذلك قوله تعالى: ﴿حورٌ مقصورات في الخيام﴾ (الرحمن: ٧٢) وقوله تعالى: ﴿فيهنّ قاصراتُ الطّرفِ لم يطمثهنّ إنسٌ قبلهنّ ولا جانٌّ﴾ (الرحمن: ٥٦) وهذه قمة الكمال المبتغاة لستر المرأة حيث لم يمسه بشر أو جن من ذكر وأنثى ولم يرها أحد منهم لأنهنّ أنشئن إنشاءً جديداً وبديعاً. كما ورد في بعض الأحاديث ما مضمونها أنّ خيرهن في هذه الدنيا من لم يلقين الرجال، ولم يرهنّ الرجال. وهذه هي الغاية التي لم يبلغها غالبية الشعراء في وصفهم. قال رجل لخاطب ابغ لى امرأة لا تؤنس جاراً ولا توطن داراً يعني لا تدخل على الجيران ولا تدخل الجيران عليها وفي مثل هذا قال الشاعر:

هيفاء فيها إذا استقبلتها صلف عيطاء غامضة الكعيبين معطار
خود من الخفرات البيض لم يرها بساحة الدار لا بعل ولا جار
وقال الأعشى من وصفها:

لم تمش ميلاً ولم تركب على جمل ولم تر الشمس دونها الكلل

(الأبشي، ١٩٨٦م، ج: ٢، ٤٨٩)

وكذلك قد أثر حياء المرأة كأمر فطرى فى حجابها فحياءها الذى جروا فى مدحه لها شعراء كثيرون، قد أعاقها عن الظهور بمنظر من الناس ومنعها من الحضور من غير الحشمة بما يؤذى أو يغرى الآخرين حيث لمح إلى ذلك بعض الشعراء فى أنها قد تقلّ زوراتها لجاراتها، فيعذرنها ويزرنها، وهى ليست مستهينة بهن ولكنها ذات حياء وخفر، قال قيس بن الأسلت:

وتكرمها جاراتها فيزرنها وتعتلّ عن اتيانهن فتعذر
وليس لها أن تستهين بجارة ولكنها منهن تحيا وتخفر

(الاصفهانى، لاتا، ج ١٥: ١٥٩)

٢. الغيرة

وكذلك يمكن أن نعتبر الغيرة بأنها تمثل دوراً فاعلاً فى صيانة المرأة وسترها كدلالة نفسية إيجابية ولكن قد تكون الغيرة فى غير موضعها فتضع أوزارها بإثارة الفتن ونشوب الحروب وتضييع الحقوق، كما أنه «كان فى سبب اليوم الثانى من أيام الفجار الأول أن شاباً ذوى غرام من قريش وبنى كنانة رأوا امرأة من بنى عامر جميلة وسيمة بسوق عكاظ، وسألوها أن تسفر فأبت، فامتنهها أحدهم، واستهزؤا بها فاستغاثت بقومها فقامت الحرب وسفكت الدماء.» (الاصفهانى، لاتا، ج ٢٢: ٦٠)

وقد ذكر المؤرخون والمفسرون أنّ من أسباب الواد الغيرة على البنات أن يُسببن أو يزوّجن بغير أكفاء. (الحوفى، لاتا: ٢٤٩) وفى العصر الجاهلى كان من أسباب دفن البنات عند بعض القبائل أنهم كانوا يحرصون على العفاف والصيانة حتى أدّى حرصهم على ذلك إلى واد البنات. وعدّ عبيد الله بن عبد الله بن طاهر وسائل الستر التى يُرجبها كلّ أب لابنته فى ثلاثة أشياء وفضل القبر عليها جميعاً:

لكلّ أب بنت يُرجى بقاؤها ثلاثة أصهار إذا ذكر الصهر
فبيت يُعطىها وبعل يصونها وقبر يوارىها وخيرهم القبر

(الحوفى، لاتا: ٢٩٢)



وفيه قال الشاعر:

سَمَّيْتُهَا إِذَا وُلِدَتْ تَمُوتُ والقبر صَهْرٌ ضَامِنٌ زَمَيْتُ

(الطبرسي، لاتا، ج ١٠: ٢٧٨؛ الزبيدي، ١٩٩٤م، ج ٣: ٥٢)

ومن الطريف أن نرى ثمة من الشعراء من لم يتخلوا عن انطباعهم لهذه العقلية الجاهلية في العصور التالية، ممّا أفضى ببعضهم كالمتنبي إلى أن جعل نفسه يواسى بها سيف الدولة المصاب في رثاء أخته الصغرى قائلاً بأنّها زفت إلى القبر واتخذت الموت بعلاً لها:

وإذا لم تجد من الناس كفواً ذاتُ خدرٍ أرادت الموت بعلا

(واجدة مجيد، ١٩٨١م: ١٥١)

وقد جعل المتنبي في تعزية سيف الدولة عن أخته خولة مدحه لأهم ما توسّم به المرأة وهو الستر. فقد كان دونها كل حجاب وكانت رؤيتها عصية على الأعين لا تكاد تدركها فقال:

قد كان كل حجاب دون رؤيتها فما قنعتها يا أرض بالحجب
ولا رأت عيون الإنس تدركها فهل حسدت عليها أعين الشهب

(واجدة مجيد، ١٩٨١م: ١٥٠)

ومثله على هذا الضرب من أسلوب التعزية نجد الشريف الرضى فإنّه رثى بعض أخواته ونعتها أيضاً بما يحسن أن تتعت به المرأة من المجد والعفة والصون فقال من رثاه فيها:

ودون كل حجاب من العفافة حجب وقبرك الصون من قبل أن يضمك ترب

(واجدة مجيد، ١٩٨١م: ١٥٢)

وهكذا الغيرة قد عملت دورها في قلة الرثاء للمرأة حفظاً على عرضها وصيانتها. كما ذهب إليه بعض الناقدين في أنّ من أشدّ أنواع الرثاء صعوبة على الشاعر أن يرثى امرأة، لضيق الكلام عليه فيها، وقلة الصفات.

الدلالات اللفظية

أسباب تستر المرأة في العصر الجاهلي لا تقتصر على ميول فطرية فحسب وإنما تتجلى ملامح تصون المرأة الجاهلية في مظاهر مختلفة أخرى تدل عليها دلالات لفظية كثيرة في شعر العرب على احتفاظ المرأة بالحجاب وإن كان نسبياً غير مستوف ما طمح إليه دين الإسلام من التستر الكامل الممنع من الريب والإثارة. هناك ألفاظ غير قليلة وردت في شعر العرب الجاهلي في مجال ستر المرأة ما يدل على معرفتها وعقيدتها الذاتية بأمر الحجاب كما ويدل على نوع من الالتزام النسبي بمسألة التستر والحجاب لديهم نحو: النقاب البرقع، الحجاب، الجلباب، الخمار، اللثام، النصف و.. وبما أن الأشعار المتضمنة لهذه الألفاظ كثيرة نذكر منها نماذج على سبيل الإشارة العابرة بما فيها من الدلالة المقنعة على التستر لدى المرأة الجاهلية.

من تلك الأبيات الشعرية التي انطلقت بها السنة الشعراء بتستر المرأة الجاهلية وعفافها ما أنشدها السليكم بن السُلُكَة في مدح فُكَيْهَة وهي امرأة جاهلية من بني قيس بن ثعلبة، كان من وفائها أن السليكم غزا بكر بن وائل، فبصروا به، فعدا حتى ولج دار فكيهة فاستجار بها، فأدركوه وحاولوا أن ينتزعه منها، ونزعوا خمارها، فاستغاثت بإخوتها، فجاءوا عشرة، فمنعوهم وأجاروا السليكم، وفي ذلك يقول مادحاً لها:

لعمر أيبك والأنباء تنمي	لنعم الجار أخت بني عوارا
من الخفريات لم تفضح أباهما	ولم ترفع لإخوتها شنارا
وما عجزت فكيهة يوم قامت	بنصل السيف وانتزعوا الخمارا

(الاصفهاني، لاتا، ج ١٨: ١٣٧)

وقال آخر:

تحك قفاها من وراء خمارها إذا فقدت شيئاً من البيت جنت
وقولهم في أمثالهم «إن العوان لا تُعلم الخمرة» أي لا تحتاج إلى تعليم الاختمار،

يضربون ذلك للرجل المجرب^١. (العسكري، ١٩٨٨م: ٣٩؛ والميداني، لاتا، ج ١: ١٧)

١. العوان: الثيب أو بنت الثلثين.



كما يبدو من الوحي المنزل وما ورد في التفسير أن المرأة الجاهلية لم تكن تتقن لبس الخمار ليغطي جميع محاسنها ولم تدرِ تغور تسترها للرجل الأجنبي وحدود سفورها للأقارب والمحارم. فنزلت من الآيات ما تبين لها وتفرض عليها حجابها وحدود سترها لزينتها. منها ما ورد في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿... وَ لِيُضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ...﴾ (النور: ٣١) قال شيخنا أمين الإسلام الطبرسي (قدس سره) في تفسير مجمع البيان: «والخمر المقانع جمع خمار وهو غطاء رأس المرأة المنسدل على جنبها، أمرن بالقاء المقانع على صدورهن تغطيةً لنحورهن فقد قيل إنهن كن يلقين مقانعهن على ظهورهن فتبدو صدورهن، وكنى عن الصدور بالجيوب لأنها ملبوسة عليها. وقيل إنهن أمرن بذلك ليسترن شعرهن وقرطهن وأعناقهن، قال ابن عباس تغطي شعرها وصدورها وترائبها وسواها». (الطبرسي، لاتا، ج ٧: ٢١٧)

هناك ألفاظ أخرى تدل على عناية الثقافة الجاهلية بالستر والحجاب، منها «النصيف» وهو من أسماء الخمار. قال النابغة: يصف «المتجرّدة» امرأة النعمان ابن المنذر لما سقط برقعها وهي مازة على مجلس الرجال:

سقط النصيف ولم ترد إسقاطه فتناولته واتقتنا باليد^١

(الجمحي، لاتا، ج ١: ٦٨)

ومن ألفاظ الستر ما يسمّى بالنقاب^٢ وهو ما تضعه المرأة على وجهها لستره، ويُسمّى أيضاً «البرقع» أو «النصيف» وقد أتت هند بنت عتبة إلى النبي (ص) وهو بالأبطح متنقبة فبعد أن أعلنت إسلامها وجرى حديث بينهما، كشفت عن نقابها، وقالت أنا هند بنت عتبة، فقال الرسول مرحبا بك. (الحلي، لاتا، ج ٣: ٤٧؛ ابن سعد، لاتا، ج ٨: ٢٣٦؛ ابن عساکر، لاتا، ج ٧٠: ١٧٩)

وتحرض أم عمرو بنت وقدان قومها على الثأر بأنهم إن لم يثأروا فعليهم أن يدعوا السلاح ويتكحلوا ويتنقبوا كالنساء:

١. النصيف: ثوب تتجلل به المرأة فوق ثيابها كلها، سمي نصيفاً لأنه نصف بين الناس وبينها فحجز أبصارهم.

٢. النّقاب: ما تنتقب به المرأة، يكون على مارن الأنف. انتقبت المرأة وتنقبت: غطت وجهها بالنقاب. (الإفصاح، لاتا، ج ١: ٣٧٤)

إن أنتم لم تطلبوا بأخيكم فذروا السلاح و وحشوا بالأبرق
وخذوا المكاحل والمجاسد وألبسوا نُقُبَ النساء فبئس رهطُ المرهق^١

(الحوفي، لاتا: ٣٧٦)

وأما القناع ففيه يقول النمر بن تولب في امرأته التي هجرته:

وصدّت كأنّ الشمس تحت قناعها بدا حاجب منها وضنت بحاجب

(الاصفهاني، لاتا، ج ١٩: ١٥٩)

ويعجب الشنفرى بحبيبتة وهي منتقبة لا تكشف وجهها:

فقد أعجبتني لا سقوط قناعها إذا ما مشت ولا بذات تلتفت

(الاصفهاني، لاتا، ج ٢١: ٩٠)

قال النابغة الجعدي في بحر الطويل:

ملكنا فلم نكشف قناعاً^٢ لحره ولم نستلب إلاّ الحديد المسمرًا

(السيد الأمين، لاتا، ج ٦: ٢٦١)

وذكر عروة بن الورد:

فراشي فراش الضيف والبيت بيته ولم يلهني عنه غزال مقنّع

(الموصلى، ١٩٩٥م، ج ١: ٣٦١)

والبرقع كذلك من تلك الألفاظ التي تستر به المرأة وجهه وذلك كما مرّ في «أسباب

سفور المرأة» قول توبة بن الحمير:

وكنت إذا ما جئت ليلي تبرقعت فقد رابني منها الغداة سفورها

هذا وقد وردت لفظة الجلباب^٣ مرة في الشعر العربي. قالت جنوب أخت عمرو ذي

الكلب ترثيه:

١. وحشوا بالأبرق: كونوا مع الوحوش بالأرض الرملية الحجرية. المرهق: الذليل المضيق عليه.
٢. القناع ما تتقنّع به المرأة من ثوب تغطّي رأسها ومحاسنها. ونحوه المقنّعة وهي ما تقنّع به المرأة رأسها.
٣. والجلباب: ثوب أوسع من الخمار، دون الرداء، تغطّي به المرأة رأسها وصدرها. ... قال ابن السكيت، قالت العامرية: الجلباب الخمار، وقيل: جلباب المرأة ملاءتها التي تشتمل بها، واحدها جلباب، والجماعة جلابيب. وفي التنزيل العزيز: ﴿... يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ...﴾ (ابن منظور، لاتا، ج ١: ٢٧٢-٢٧٣)



تمشى النسور إليه وهي لاهية مشى العذارى، عليهن الجلابيب

(ابن منظور، لانا، ج: ١، ٢٧٢-٢٧٣)

وقال تميم بن أبي:

لبست جلابيب الحرير وخذرت بالريظ فوق نواعج وجمال
وحار قيس بن الخطيم في نوع الرائحة التي تزوع من جلبابها فقال:

كأن القرنفل والزنجبيل وذاكي العبير بجلبابها

(شلي، لانا: ٦٤)

النتيجة

بناءً على الفطرة النبيلة البشرية كان لستر المرأة وعفافها عناية خاصة يوليها العرب الجاهلي في ذات نفسه.

كان لسفور المرأة الجاهلية عدة أسباب أهمها فيما يلي:

الحزن والمصيبة: حيث إنها تفقد صبرها وصوابها عند المصائب المفجعة، فتخرج عن خبائها وتشق جيبتها أو تمزق خمارها وتلطم على وجهها حاسرة الرأس والذراع جزعاً منها على فقيدتها.

إبداء الحسن والزينة: إن المرأة الجاهلية قد كانت تتخلى عن التزامها بالستر والحجاب لما كان لها من الحرية في إبداء الزينة في ظروف خاصة كأيام الحج أو غير الحج في الرحلات.

الفقر والجوع: من دواعي السفور لدى المرأة الجاهلية معاناتها من الجوع والفقر حيث كانت أحياناً تؤدي بها إلى تركها التعزل والخفر وعدم احتجابها وحضورها محضر السوء سداً للجوع وكسباً للرزق.

الخوف من السبي: كانت المرأة العربية الجاهلية تسفر في الحروب إذا أيقنت هزيمة قومها وخشيت السبي فتتشبه بالأمة حتى يُزهد فيها وتتأهب للفرار سافرة.

إبراز المحبة: من أسباب سفورها شق الرداء والبرقع لدوام المحبة. زعموا أن المرأة

إذا أحببت رجلاً أو أحبها ولم تشق عليه رداءه ويشق عليها برقعها فسد حبهما. هناك دلالات ذاتية منبعثة عن الفطرة توحى بأن العرب الجاهلي ولو أنه كان فاسقاً مستهتراً لأعراض الناس لكنه في داخل نفسه يستحمد تصون المرأة وعفافها، فيصف امرأته المطلوبة بأنها عفيفة، طيبة السمعة لم تتناولها الألسن، ويشبهها بالدرة المكنونة أو بيضة الخدر لما يجد فيها من الصفاء والحصانة المميزة. هناك ألفاظ غير قليلة وردت في شعر العرب الجاهلي في مجال ستر المرأة ما يدل على معرفتها وعقيدتها الذاتية بأمر الحجاب كما يدل على نوع من الالتزام النسبي بمسألة التستر والحجاب لديهم نحو: النقاب البرقع، الحجاب، الجلباب، الخمار، اللثام، النصيف و... .

المصادر والمراجع

- آلوسی، أبو الفضل محمود. لاتا. روح المعانی فی تفسیر القرآن العظیم والسبع المثانی. ۳۰ ج. بیروت: دار إحياء التراث العربي.
- البستاني، فؤاد أفرام. لاتا. المجاني الحديثة: عن مجاني الأب شيخو. اختيار ودرس وشرح وتبويب لجنة من الأساتذة. الطبعة الثالثة. ۵ ج. بيروت: دارالمشرق.
- الأبشيهي، شهاب الدين محمد بن أحمد أبي الفتح. ۱۹۸۶ م. المستطرف في كل فن مستطرف. تحقيق مفيد محمد قميحة. الطبعة الثانية. ۲ ج. بيروت: دارالكتب العلمية.
- ابن الأثير. ۱۹۶۶ م. الكامل في التاريخ. ۱۲ ج. بيروت: دار صادر للطباعة والنشر.
- ابن سعد، محمد. لاتا. الطبقات الكبرى. ۸ ج. بيروت: دار صادر.
- ابن عساکر. ۱۴۱۵ ق. تاريخ مدينة دمشق. تحقيق علي شيري. ۷۰ ج. مطبعة دارالفكر.
- ابن قيس، محمد بن عبيد بن سفيان. ۱۹۹۷ م. قرى الضيف. تحقيق عبدالله بن أحمد المنصور. الطبعة الأولى. الرياض: أضواء السلف.
- ابن منظور، محمد بن مكرم بن منظور الافريقي المصري. لاتا. لسان العرب. الطبعة الأولى. ۱۵ ج. بيروت: دار صادر.



- أبو رحاب، حسان. ١٩٤٧م. *الغزل عند العرب*. الطبعة الأولى. القاهرة: مطبعة مصر.
- الأصفهاني، أبو الفرج. لاتا. *الأغاني*. تحقيق سمير جابر. الطبعة الثانية. ٢٤ ج. بيروت: دار الفكر.
- الأعشى. ١٩٩٤م. *ديوان الأعشى الكبير ميمون بن قيس*. شرح وقدم له ووضع هوامشه وفهارسه حنا نصر الحتي. الطبعة الثانية. بيروت: دار الكتاب العربي.
- الأمين، السيد محسن. لاتا. *أعيان الشيعة*. تحقيق وتخريج حسن الأمين. ١٠ ج. بيروت: دارالتعارف للمطبوعات.
- البستاني، فؤاد أفرام. لاتا. *المجاني الحديثة عن مجاني الأب شيخو*. الطبعة الثانية. بيروت: المطبعة الكاثوليكية.
- البغدادي، أحمد بن علي أبو بكر. لاتا. *تاريخ بغداد*. ١٤ ج. بيروت: دار الكتب العلمية.
- الجمحي، محمد بن سلام. لاتا. *طبقات فحول الشعراء*. تحقيق محمود محمد شاكر. جدة: دار المدني.
- الحسيني الكاشاني، السيد عباس. ١٤٠٠ ق. *حدائق الأنس في نوادر العرب والفرس*. الطبعة الأولى. قم: مطبعة الخيام.
- الحوافي، أحمد محمد. لاتا. *الغزل في العصر الجاهلي*. بيروت: دارالقلم.
- _____ . ١٩٨٠م. *المرأة في الشعر الجاهلي*. الطبعة الثالثة. القاهرة: دار النهضة للطبع والنشر.
- الحلبي. ١٤٠٠ ق. *السيرة الحلبيية*. ٣ ج. بيروت: دارالمعرفة.
- الزبيدي. ١٩٩٤م. *تاج العروس*. ٢٠ ج. بيروت: دارالفكر.
- زكي صفوت، أحمد. لاتا. *جمهرة خطب العرب*. ٣ ج. بيروت: المكتبة العلمية.
- السجستاني، ابن الأشعث. ١٩٩٠م. *سنن أبي داود*. الطبعة الأولى. أخرج وراجع ووضع فهارسه مكتب الدراسات والبحوث في دار الفكر.
- السيد المرتضى. ١٩٠٧ م. *الأمالي*. تصحيح وتعليق الشيخ أحمد بن الأمين الشنقيطي. الطبعة الأولى. منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي.

شليبي، عبد المنعم عبد الرؤف. لاتا. ديوان عنثرة بن شداد. مصر: مطبعة شركة فن الطباعة. الشورى، مصطفى عبدالشافى. ١٩٨٣م. شعر الرثاء فى العصر الجاهلى. بيروت: الدار الجامعية للطباعة والنشر.

الضبى. لاتا. المفضليات. شرح الأستاذين شاکر وهارون. مصر: مطبعة المعارف. الطائى. لاتا. ديوان الحاتم الطائى. شرحه وضبط نصوصه وقدم له عمر فاروق الطباع. بيروت: شركة دار الأرقم بن أبى الأرقم.

الطبرىسى، الفضل بن الحسن. ١٣٧٩ق. مجمع البيان فى تفسير القرآن. ١٠ج. بيروت: دار الإحياء للتراث العربى.

الطوسى، أبو جعفر محمد بن الحسن بن على. ١٤٠٩ق. التبيان فى تفسير القرآن (تفسير التبيان). تحقيق محمد حبيب قصير العاملى. الطبعة الأولى. ١٠ج. قم: مكتب الاعلام الإسلامى (الأفست من الطبعة البيروتية).

العسكرى، أبو هلال. ١٩٨٨م. جمهرة الأمثال. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعبد المجيد قطامش. الطبعة الثانية. بيروت: دارالفكر.

الفراهيدى، خليل بن أحمد. ١٤١٤ق. كتاب العين. الطبعة الأولى. ٨ج. مؤسسة النشر الإسلامى.

القرشى، أبو زيد محمد بن أبى طالب. ١٩٢٦م. جمهرة أشعار العرب. مصر: المطبعة الرحمانية.

القلقشندى، أحمد بن على. ١٩٨٧م. صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء. تحقيق يوسف على طويل. الطبعة الأولى. ٨ج. دمشق: دارالفكر.

نجيب عطوى، على. ١٩٩٣م. الخنساء بنت عمرو شاعرة الرثاء فى العصر الجاهلى. الطبعة الأولى. بيروت: دار الكتب العلمية.

المتقى الهندى. لاتا. كنز العمال. تحقيق الشيخ بكرى حيانى والشيخ صفوة السقا. ١٦ج. بيروت: مؤسسة الرسالة.

المقرم، عبدالرزاق الموسوى. ١٣٧٢ش. مقتل الحسين (ع) أو حديث كربلاء. إيران: انتشارات



شريف الرضى.

الموصلى، أبوالفتح ضياء الدين. ١٩٩٥م. *المثل السائر*. تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد.

٢ج. بيروت: المكتبة العصرية.

الميداني النيسابوري، أبوالفضل أحمد بن محمد. لاتا. *مجمع الأمثال*. تحقيق محمد محيي

الدين عبد الحميد. ٢ج. بيروت: دارالمعرفة.

نورى، ميرزا حسين. لاتا. *مستدرک الوسائل*. الطبعة الأولى. ١٨ج. قم: مؤسسة آل البيت

لإحياء التراث.

واجدة مجيد، عبدالله الأطرقيجى. ١٩٨١م. *المرأة فى أدب العصر العباسى*. الجمهورية العراقية:

مشورات وزارة الثقافة والإعلام.

يوسف موسى، حسين والصعيدى، عبدالفتاح. ١٤١٠ق. *الإفصاح فى فقه اللغة*. الطبعة الرابعة.

٢ج. مكتب الإعلام الإسلامى.